بسم الله الرحمن الرحيم

المقالة الخامسة[1]:

الشيخ: يعقوب بن عبدالوهاب الباحسين
معالم مستخرجة من مؤلفاته

الشيخ الدكتور يعقوب بن عبدالوهاب الباحسين رحمه الله تعالىٰ من المعاصرين القلائل الذين بذلوا عمرهم في خدمة العلم وأهله، كما أنه عالم متخصص، فكان كل عمله وبحثه وتدريسه متجه إلىٰ علم أصول الفقه، مما جعله يبحر كثيراً في هذا الفن، ويبرز فيه أكثر من غيره.

ولم يشغله عمله الأكاديمي الذي لم ينقطع إلا بوفاته، عن أن يواصل الكتابة والتأليف، فلم ينشغل بالتأليف عن التدريس ولا بالتدريس عن التأليف.

توفي الشيخ يعقوب وخلف بعده تركة علمية كثيرة، في مؤلفات متخصصة في أصول الفقه والقواعد الفقهية، تزيد علىٰ عشرين كتابـًا، وأردت أن يكون كلامي عن فضيلة شيخنا الدكتور يعقوب مختلفـًا عما يُكتب عادة عن المعاصرين، بأن لا تكون الكتابة مقتصرة علىٰ تتبع المترجم له وظيفيـًا، فهذه المعلومات يمكن الحصول عليها من عدة طرق، كما أنها لا تفيد القارئ بأمر ذي بال، أو تكون الترجمة للمعاصر لبيان علاقة الكاتب به وصحبته له، لأكون في الحقيقة متكلمـًا عن نفسي لا عن الشيخ رحمه الله، وهذا هو الذي جعلنا نفقد ذلك العمق العلمي الذي نجده في كتب التراجم التي ألفها المتقدمون، التي كانت تحوي فوائد ونوادر عن المترجم له، بل قد تتضمن كتبـًا أو رسائل أو مساجلات شعرية بين المترجم له وغيره من معاصريه.

ومما لا يختلف فيه أن الشيخ يعقوب ـ أسدل الله علىٰ قبره الرحمة ـ امتاز بسيلان قلمه

(١) هذا هو المقال الخامس من سلسلة مقالات عن الكتب: - كتب ظلمتها عناوينها، - المشتبه اللفظي بين العربي والأجنبي: قوقل نيسان فندي أنموذجـًا، - القصة المتداولة علىٰ الألسنة زمنـًا بعد زمن وموقف طالب العلم منها: قصة ابن سعدي أنموذجـًا، - تعدد عناوين الكتاب الواحد: مقاصد الصوم أو فوائد الصوم أنموذجـًا.

التأليفي في فن أصول الفقه، مما يستحق معه أن يكون محل دراسة معمقة تحتوي آراءه ومنهجه وغير ذلك.

ولقد تيسر لي قراءة عدد من مؤلفاته رحمه الله بعضها أثناء حياته، وبعضها بعدما توفي، وبرز لي جانب مهم في مؤلفات الشيخ وهو وحدة طريقته في التأليف، فهو يسير في تأليفه علىٰ منهج واحد، ولذلك تظهر للقارئ عند قراءته كتب الشيخ يعقوب معالم بارزة، دالة علىٰ القوة العلمية والمنهجية العلمية لديه -رحمه الله-، ورأيت من الوفاء بحقه إبراز تلك المعالم، وقد اقتصرت علىٰ ذكر سبعة معالم فقط، ممثلاً علىٰ كل معلم منها بمواضع من كتبه التي قرأتها، كما قمَّشت من مؤلفاته فوائد ونكتاً علَّها أن تخرج علىٰ شكل لطيف، يمكن تناقلها بين طلاب العلم المتخصصين، وبين طلابه ومحبيه خاصة.

المعلم الأول: الجدة في الموضوع، أو عدم الكتابة في موضوع إلا بعد تحقق النظر في الكتابات السابقة:

من أهم ما تبرز به مؤلفات الشيخ يعقوب أنه لا يؤلف في الغالب إلا في موضوع لم يبحث قبله، وهذا تراه بارزاً في عدد من مؤلفاته منها: كتابه: (رفع الحرج في الشريعة الإسلامية) الذي نال به درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر، عام ١٣٩١هـ.

وخير شاهد علىٰ ما جدة الموضوع ما كتبته لجنة المناقشة بعضوية محمد علي السايس وإبراهيم دسوقي ومحمد عبادة، حيث قالت في تقريرها عن الكتاب: علىٰ الرغم من أن الباحث لم يسبق إلىٰ كتابة هذا الموضوع، وأنه أول طارق له علىٰ المنحىٰ العلمي الذي تقتضيه الرسائل، مما جعل مهمته صعبة وشاقة، إلا أنه استطاع أن يخرج بحثاً نفيساً، وأن يقيم لرفع الحرج دعائم واضحة ومعالم بينة.أ.هـ

ومنها كتابه: (التخريج عند الفقهاء والأصوليين) وقد نبه الشيخ في مقدمته بما يفيد أنه لم يجد من ألف كتاباً علىٰ النحو الذي ألفه عليه، فقال (ص/ ٧، ط/ ٤): وربما كانت هذه أول

دراسة تأصيلية نظرية تطبيقية له.

ومنها كتابه (الفروق الفقهية والأصولية) وقد أشار لذلك (ص/ ٧) فقال: وعلىٰ الرغم من وفرة الكتب المؤلفة في المجال التطبيقي لهذا العلم، إلا أنني لم أجد دراسة مستقلة تبحث عن هذا العلم، من حيث هو، بحيث إنها تبين موضوعه ومقوماته، ونشأته، وتطوره، ومناهجه، وجل ما رأيته كان مقدمات لكتب محققة، تتناول هذا الموضوع، بتعريفه، وبيان أهميته، وتعداد طائفة من مؤلفاته، وهي مقدمات ليست بمستوىٰ واحد، منها ما تتصف بالسطحية والعجلة في التأليف، ومنها ما كانت مقدمات فيها نوع من الجدية والالتزام بالمنهج العلمي.

ثم قال: وقد شجعني علىٰ نشر هذا البحث وإخراج مسوداته من أدراج مكتبتي، أنني لم أجد، في حدود اطلاعي، بحثًا مستقلاً يتناول هذا الموضوع، كما أشرت إلىٰ ذلك آنفًا.أ.هـ

ولأن كتبه في الغالب علىٰ هذا المنوال؛ فقد جعل من أهدافه أن يكون ما كتبه نواة لكتب ورسائل أخرىٰ تُجلي الموضوع، يقول رحمه الله في كتابه (الفروق الفقهية والأصولية) (ص/ ٨،ط/ ٢): وإنني علىٰ ثقة بأن هذا الموضوع في حاجة إلىٰ دراسة أوسع مما قدمت، وأن بحثي هذا ربما كان نواة لبحوث أكثر تجلية لمسائل هذا العلم، علىٰ أنه مهما يكن من أمر هذا البحث، فإني لم أقصد منه غير النفع ، وتنبيه الباحثين إلىٰ أهميته وضرورة العناية به.أ.هـ

وفي الجانب العكسي لهذا المعلم؛ فإنه إذا كان قد سُبق إلىٰ الكتابة في الموضوع، فإنه يثني علىٰ من سبقه، يقول رحمه الله في كتابه (قاعدة الأمور بمقاصدها) (ص/ ١٧٦): ولا يفوتني في هذا المجال التنويه بالدراسات السابقة لهذه القاعدة، مهما كان نوعها، ولست أدعي مزية وفضلاً عليها، فذلك أمر متروك للباحثين، وليس المهم هو تقديم المادة العلمية المتعلقة بها، ولكن المهم هو كيفية استثمار هذه المادة، ومنهج بحثها، والانتفاع بها، وتطبيقها، هذا والله سبحانه أعلم بالمقاصد.أ.هـ.

المعلم الثاني: الاستيعاب في الكتابة، أو حرصه على الإتيان بكل ما له علاقة بموضوعه حتى ولو لم يكن له ثمرة، أو لم يأت به من سبقه:

الشيخ رحمه الله إذا لم يطبق الجدة في كامل موضوع ما يؤلف فيه كتابه ـ كما مر معنا في المعلم السابق ـ فإنه لا يهمل أن يحوي كتابه ما ليس عند غيره، ولذلك تجده يتكلم عن أجزاء في الموضوع قد أهملها الأصوليون، وهذه تقع كثيراً أن يتوافق علماء فن من الفنون علىٰ ترك الكلام في بعض مفردات الموضوع، اعتماداً علىٰ أنها معلومة أو من باب الاختصار، لكن الشيخ يعقوب رحمه الله حرص أن يتكلم عما يمر به من مفردات أهملها علماء الأصول.

فمثلاً: أهمل الأصوليون الكلام علىٰ الواجب المعين، ولما عرض الشيخ لأنواع الواجب في كتابه (الحكم الشرعي: حقيقته أركانه شروطه أقسامه)، وذكر من بينها الواجب المعين ومثل له، قال في (ص/ ٢٢٦، ط/ ٢): ونظراً لكون الأحكام في غالبها معينة، لم يعقد أغلب الأصوليين مباحث خاصة به، بل اقتصروا علىٰ بيان معناه، وذكر أمثلة له، أو تركوا الكلام عنه بصورة كاملة وركزوا الكلام علىٰ الواجب المخير، وأفردوا له مباحث خاصة.أ.هـ

ومثل ذلك أيضـاً: تقسيم الواجب إلىٰ: واجب محدد وواجب غير محدد فقال في (ص/ ٢٢٢): ولم تتعرض أغلب الكتب الأصولية إلىٰ هذا التقسيم، ولعل ذلك يعود إلىٰ ما بين هذا النوع من التقسيم وتقسيم الواجب إلىٰ معين ومخير من مشابهة.أ.هـ

بل إنه رحمه الله يحرص علىٰ أن لا يترك ما ذكره الأصوليون، حتىٰ وإن لم يكن له ثمرة، اعتباراً له من الرياضة العقلية، فعند كلامه عن مسألة الخلاف في اعتبار المندوب من أحكام التكليف، قال في (ص/ ٢٩٥): والخلاف في هذه المسألة لفظي، مبني علىٰ تفسير معنىٰ التكليف، فكل واحد من المذهبين بنىٰ رأيه علىٰ تفسير للتكليف، غير تفسير المذهب الآخر.

وليس لهذا الخلاف ثمرة عملية مترتبة عليه، فالخوض في هذه المسألة نوع من الرياضة العقلية، والترف الفكري، وهو جهد ضائع فيما لا جدوىٰ فيه، وقد اضطررنا لعرض هذه

المسألة لئلا نخلي الموضوع مما بحثه وتعرض إليه الأصوليون .أ.هـ

المعلم الثالث: تشكيه من سرقة كتبه، ثم طيب نفسه بذلك، لأنه علم:

من أظهر ما يجده القارئ لكتب الشيخ رحمه الله، وحتىٰ من حضر دروسه في الجامعة: تذمره -رحمه الله- من سطو بعض الباحثين علىٰ بعض مؤلفاته دون أن يشيروا إلىٰ جهده وسبقه لهم، وهذا الأمر هو نتيجة لما ذكرناه في المعلم الأول من حرصه علىٰ الجدة والأسبقية فيما يكتب، ولذلك نجده في كتابه : (رفع الحرج في الشريعة الإسلامية)، الذي كان له قدم السبق في الكتابة ابتداء في هذا الموضوع، يقول رحمه الله (ص١١-١٢، ط/ ٢): إن من دواعي سرور الباحث أن يكون ما كتبه مصدر إفادة للباحثين، وأنه يعد ذلك من نعم الله التي تستحق الشكر والحمد، لكن الذي يسوؤه أن تكون له وجهات نظر خاصة، وإشارات إلىٰ مراجع لم يشر إليها أحد ممن كتب قبله، فلا يشار إلىٰ رسالته بشأنها، بل إنه لم يشر إليها حتىٰ في النقول الحرفية، أو المحرفة للتمويه أحيانـًا، ولست أرغب في التعرض إلىٰ أسماء هؤلاء الباحثين، أو ذكر تفصيلات ما أخذوه من هذه الرسالة، لأنه ليس من غرض هذه المقدمة التشهير بالأشخاص، ولا تعريتهم فيما نقلوه، فذلك متروك لمتابعي حركة التأليف، والإنتاج العلمي، وإني أحمد الله تعالىٰ أن وجد بإزاء هؤلاء علماء آخرون أشاروا إلىٰ هذه الرسالة، وأخص منهم بالذكر فضيلة الأخ الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد في رسالته للدكتوراه.أ.هـ.

كما أنه ألمح إلىٰ مثل ذلك في كتابه: التخريج عند الفقهاء والأصوليين، في مقدمة الطبعة الثانية للكتاب، وأشار إلىٰ ذلك كثيراً في محاضراته علىٰ الطلاب، في تعداد من استفادوا من كتابه (التخريج عند الفقهاء والأصوليين، ثم يختم كلامه دائمـًا بقوله: هذا علم، لكن نحن نريد فقط: الالتزام بأدب البحث عند النقل.

المعلم الرابع: عدم اعتداده بأقواله، بل يدعو القارئ لتصحيحها وتصويبها:

لا يخلو كتاب من كتب الشيخ رحمه الله من إكثاره اللوم علىٰ نفسه وأن آراءه محل نظر،

ويدعو من يرىٰ خطأ أن يصححه، وأنه مستعد للنظر في كل ما يكتب عن مؤلفاته.

فقال في كتابه (رفع الحرج) ص/ ١٢: مكرراً ما سبق أن ذكرته في الطبعة الأولىٰ من أنني مفتقر إلىٰ التنبيه إلىٰ أي زلل وقعت فيه، أو التوجيه إلىٰ ما فيه الحق، وإني لم أنتصر لرأي ما لم يتكشف لي أنه الصواب، فإن أخطأت فعذري أنني بشر، وأن العصمة لله وحده.

ثم قال بعدها في ص/ ١٦: وأرجو ممن وقعت بين يديه أن يجد فيها ما ينفع، وأن يثق بأن كاتبها مفتقر إلىٰ التنبيه إلىٰ أي زلل وقع فيه، أو التوجيه إلىٰ ما فيه الحق، وأنه لم ينتصر لرأي لم يتكشف له أنه الصواب، فإن أخطأ فعذره أنه بشر، وإن العصمة لله وحده.

وقال في كتابه: (قاعدة الأمور بمقاصدها) (ص/ ٩، ط/ ١): وأرجو من القارئ أن يكون منصفـًا، وأن يعذر الباحث في الخطأ اليسير، وأن يعلم أن الباحث ليس في غنىٰ عن تسديد في الرأي، أو تنبيه إلىٰ ما أغفله، والله سبحانه الموفق، وهو حسبنا ونعم الوكيل .أ.هـ

المعلم الخامس: كلامه عن مؤلفي الكتب وتراجم لبعض المعاصرين:

مما امتازت به مؤلفات شيخنا رحمه الله وبخاصة مؤلفاته المتقدمة تأليفـًا: ترجمته لبعض المعاصرين، من خلال ما يعرفه عنهم، وهذه التراجم لن تجدها عند غيره، ومن استمع إلىٰ بعض لقاءاته المسجلة معه يرىٰ موسوعيته في معرفة الأشخاص الذي قابلهم في مسيرته الحياتية، أو قرأ لهم، وهذه الميزة في الشيخ تحتاج إلىٰ إفراد بالكتابة، والتتبع لما كتب ولما سُجل له صوتيـًا، من قبل المهتمين بتراجم المعاصرين.

فمن الكتب التي حوت تراجم لبعض المعاصرين كتابه (أصول الفقه: الحد والموضوع والغاية) (ط/ ١) حيث تكلم في (ص/ ٥٣) عن الشيخ يوسف عبدالرزاق من علماء العراق المتوفىٰ سنة(١٩٦٨م).

وفي (ص/ ٤٦) : ترجم لعالم الشيعة محمد تقي الطبطبائي .

وفي (ص/ ١١٨) وما بعدها تكلم عن مؤلفات علي الوردي وبعض آرائه الفلسفية، وناقشها.

ولو عُكف علىٰ مؤلفاته لخرج الباحث من ذلك بشيء جيد.

المعلم السادس: أدبه في تعامله مع المخالف وعدم التصريح باسم المردود عليه، مكتفياً بذكر القول فقط:

مَن تعامل مع الشيخ رحمه الله يجد أنه عفيف اللسان، لا يرد الإساءة بالإساءة، وسبق ما ذكرناه عن تعامله مع من اعتدىٰ علىٰ بعض مؤلفاته، وعدم رغبته التشهير بهم.

وفي مثال آخر علىٰ عفة لسانه، حين يتكلم عن بعض المواضيع الفرعية، ويجد خطأ من أحد المعاصرين فإنه لا يشهر باسمه، بل يصحح الخطأ دون أن يذكر صاحبه، ففي كتابه (الفروق الأصولية والفقهية، ص/ ٧٣)، عند تعريفه بالكتب المؤلفة في الفروق، قال: وأما كتاب المطارحات فقد نسبوه إلىٰ أحمد بن محمد بن أحمد البغدادي المعروف بابن القطان المتوفىٰ سنة (٣٥٩هـ)، ويبدو أن هؤلاء قد وقعوا في الوهم؛ لأن الكتاب المذكور هو لأبي عبد الله الحسين بن محمد القطان، الذي ترجم له ابن السبكي، فيمن توفي بين الأربعمائة والخمسمائة.

ثم في (ص/ ٧٦) قال: وما نقله محقق (إيضاح الدلائل عن مطالع الدقائق) للإسنوي (ت ٧٧٢هـ)، لا يكفي في الحكم علىٰ أنه كتاب في الفروق، فالقول بأنه اشتمل علىٰ فروق، وعلىٰ فنون أخرىٰ، وصف مبهم ينطبق علىٰ كثير من الكتب التي ليست في الفروق، علىٰ أن الإسنوي (ت ٧٧٢هـ) نفسه نعته في الطبقات بما يشبه أنه في الألغاز. أ.هـ.

فالشيخ هنا لم يصرح باسم من وهم في نسبة كتاب المطارحات إلىٰ كتب الفروق، مع شهرة الكاتبين اللذين وهِما في النسبة.

وهذه طريقته رحمه الله في نقد الآراء والأقوال فهدفه نقض القول دون حرص منه علىٰ ذكر قائله.

المعلم السابع: اعتماده على طبعات متعددة للكتاب الواحد:

من يقرأ مؤلفات الشيخ رحمه الله يعجب كثيراً لكثرة مراجعه التي يعتمد عليها، وهذا

المسلك هو طريقته منذ بدأ الكتابة، وقد أشار لذلك الدكتور محمد علي السايس، وهو أحد المناقشين لرسالته الدكتوراه: (رفع الحرج) حيث قال في تقريره عنها: وبعد: فهذه الرسالة لا يكفي أن يقال فيها إنها حسنة أو جيدة أو ممتازة، فإنها عمل جاد وجديد بمعنىٰ كل الجدة، فلم يسبق فيما أعلم أنه أُلِّف في هذا الموضوع بهذا الشمول والتنويع والتنسيق، فما أحسنها وما أجملها وما أبدعها، وحقًا إنها نسيج وحدها، ولله در الباحث استخلصها من ٢٢٠ مؤلفًا قديمًا وحديثًا، مطبوعًا ومخطوطًا، لم يترك صغيرة ولا كبيرة، ولم تدع شاردة ولا واردة إلا احتوتها وعرضتها بأسلوب فصيح عرضًا أخاذاً أو جذابًا، ينم عن شخصية علمية ناجحة، وعن ثقافة عالية متنوعة.أ.هـ.

والعجيب في مسلك الشيخ رحمه الله أنه قد يعتمد في الكتاب الواحد علىٰ أكثر من طبعة مع اختلاف المحققين، من ذلك ما ورد في كتابه (الحكم الشرعي) من اعتماده علىٰ تحقيقين لكتاب قواعد ابن اللحام، كما في (ص/ ٥٦٦).

ومع ذلك فإنه -رحمه الله- لا يتشبع بما لم يحصل عليه، فتجده دقيقًا في الإحالة إذا كان أخذها بواسطة، فينسبها إلىٰ من أخذها منه، كما جاء في (ص/ ٢٥٩، ح/ ١)، وفي (ص/ ٢٧١) من نفس كتاب (الحكم الشرعي).

خاتمة: وبعد: فهذه معالم ظهرت لي من خلال استعراض خمسة من مؤلفات الشيخ رحمه الله، فماذا لو استعرضتها كلها، وأحسب أن ما كتبته هنا قليل من كثير حقه علينا، رحمه الله وأعلىٰ نزله.

ثم لعل هذه المعالم أن تفتح آفاقًا لمن أراد دراسة مؤلفات الشيخ رحمه الله، أو غيره من العلماء، بما يظهر محاسن المؤلفات التي قد يقصرها البعض علىٰ المحتوىٰ الذي ألفت فيه.

كتبه: د. عبدالرحمن بن علي بن محمد العسكر

الرياض: ٢٠/ ٤/ ١٤٤٤